مطالعات في الأدب العربي

عقليـــات الشعوب
في معادلات رياضية
للأستاذ على كمال

« لن يونانج » أعظم الكتاب الصينيين المعاصرين ، وهو من أشهر مفكري القرن العشرين وكتبه من أوسع الكتب الحديثة انتشاراً ، اكتسب شهرة واسعة لتوفقه في فهم طبيعة العقل الغربي ومقارنته بأعرق العقليات الشرقية قدماً وهو العقل الصيني . وكتابه « أهمية الحياة » يعتبر أهم كتبه وقد أعيد طبعه في أمريكا أكثر من عشر مرات في نحو من سنتين . وفي هـذا الكتاب فصول قيمة ننقل إلى القارئ منها خلاصة فصل طريف ضمنه دراسة لعقليات الشعوب حاول رسمها بمعادلات رياضية

« ... يظهر أن الجنس البشري ينقسم إلى طائفتين : الواحدة مثالية والأخرى واقعية . والمثالية والواقعية هما القوتان العظيمتان اللتان تتجاذبان التقدم الإنساني . فطفلُ الإنسانية قد صار ليناً مرناً بماء المثالية ... إن هاتين القوتين المثالية في طرف والواقعية في طرف آخر تتجاذبان في جميع حقول النشاط الإنساني ، والتقدم الحقيقي ممكن فقط بمزج هذين العنصرين بنسب موافقة حتى يظل الطين لينا مرناً ، فلا يشتد طبعه فيصعب تدبيره ، ولا يلين قوامه فيصبح وحلاً . فالشعب الإنجليزي وهو أحكم الشعوب قد مزج الواقعية والمثالية بنسب موافقة فلم يترك المزيج قاسياً يصعب على الفنان تدبيره وتناوله ، ولم يتركه مرقاً فلا يقوى على حفظ شكله وقوامه

وبعض الأمم في ثورات متتابعة ، ذلك لأنه قد حقن في طينتهم الأصيلة بعض السائل من مثاليات الأمم الأجنبية التي لم تتمثل بعض في طبيعتهم ، لهذا لم تقو طينتهم الأصيلة على حفظ شكلها

لقد فكرت في معادلات يمكن بواسطتها أن نعبر عن التقدم الإنساني وعن التغيرات التاريخية وهذه هي :

الحقيقة − الأحلام = كائن حيواني

الحقيقة + الأحلام = صداع القلب (يسمى عادة : المثالية)

الحقيقة + روح النكتة = الواقعية

الأحلام − روح النكتة = التعصب

الأحلام + روح النكتة = الوهم

الحقيقة + الأحلام + روح النكتة = الحكمة

وعلى ذلك فالحكمة أو أرقى أنواع التفكير تتألف في ربط أحلامنا بروح الفكاهة والنكتة ودعمها بالحقيقة نفسها

ولعل المعادلات التالية تفصل ما وصلت إليه من دراسة عقليات الشعوب ، والمجال واسع لمعارضتها ونقدها

إذا رمزنا للحقيقة أو الواقع بالحرف «و» وللحلم بالحرف «ح» ولروح النكتة بالحرف « ن » وللعاطفة بالحرف « ع » ، ثم استعملنا الأعداد ٤ ، ٣ ، ٢ ، ١ لندلل على نسبة حظ الشعوب من هذه العناصر خرجنا من ذلك بمعادلات يظهر منها أن الجنس البشري في أفراده وجماعاته يسلك سلوكاً متبايناً بالنسبة إلى حظه من هذه العناصر بنفس الطريقة التي تسلك فيها العناصر والمركبات الكيميائية في تفاعلها . وما دمنا لا نستطيع أن نخلق اصطلاحات كالمستعملة في علم الكيمياء مثلاً فلنا أن نعبر عن هذه المركبات بمقادير ذرية كأن نقول ٣ ذرات في الحقيقة حق٣ ، وذرتين في الحلم ح٢ وهكذا

حق٣ ح٢ ن٢ ع١ = الإنجليزي

حق٢ ح٣ ن٣ ع٣ = الفرنسي

حق٣ ح٣ ن٢ ع٢ = الأمريكي

حق٣ ح٤ ن١ ع٢ = الألماني

حق٢ ح٤ ن١ ع١ = الروسي

حق٢ ح٣ ن١ ع١ = الياباني

حق٤ ح١ ن٣ ع٣ = الصيني

ولست أعلم عن الإيطاليين والأسبانيين والهنود ما يمكنني من وضع مثل هـذه المعادلات لهم ، وأنا واثق بأن هـذا

القليل الذى وضعته سيكفى لفتح سيل عرم على رأسى من النقد

ولا بد من الملاحظة على هذه المعادلات ، فمنها يظهر أن الفرنسيين أقرب الناس إلى الصينيين من حيث روح النكتة والعاطفية ، كما يتضح ذلك فى كيفية كتابة الفرنسيين لكتبهم وأكلهم وطعامهم . ولكن طبيعة الفرنسيين المتبخرة ناتجة عن مثالية أوسع تأخذ شكل الحب للفكر المجرد

واليابانيون والألمان متشابهون جداً فى فقدانهم لروح النكتة والفكاهة ، وما دام من غير الممكن وضع صفر كدرجة لهم فى هذا العنصر من مركبهم العقلى فأنا أضع « ١ » وأعتقد بأننى محق فى ذلك . غير أننى أعتقد بأن اليابانيين والألمان قد قاسوا كثيراً فى حياتهم السياسية ويقاسون الآن بسبب إخفاقهم فى امتلاك روح نكتة وفكاهة ملائمة . وعند ما وضعت ح٣ لليابانيين عنيت بذلك ولاءهم التعصبى لأمبراطورهم ولدولتهم الذى ما كان ممكناً لو أن فى عقليتهم بعض الشىء من روح النكتة

... إن هنالك تجاذباً طريفاً فى أمريكا بين المثالية والواقعية وكلتاهما متمثلتان بقوة كبيرة ، وهذا يفسر لنا النشاط والقوة التى يتصف بها الأمريكيون . إن الكثير من مثالية الأمريكيين نبيل بمعنى أن الأمريكيين يلبون بسهولة دعوة نبيلة محقة ، ولكن البعض من مثاليتهم يتصف بروح الأساطير

والإنجليز كما يظهر لى إجمالاً هم أحكم الشعوب ، فإن « حق٣ ح٢ » تنطق بالثبات والاتزان ، وهى أقرب المعادلات للمعادلة المثالية فى نظرى ، وهى (حق٣ ح٢ ن٢ ع٢) التى قصر الإنجليز عن بلوغها بدرجة واحدة فى العاطفة

* * *

من دراسة عقليات الشعوب نخرج بهذه النتيجة : فى الصين يعيش الرجل حياة أقرب إلى الطبيعة وأقرب إلى الطفولة ، حياة تمارس فيها الغرائز والعواطف بحرية تامة ، وتؤكد هذه الحياة بقوة ضد الفكر . وعلى هذا ففلسفتهم فى الحياة توصف بما يلى :

أولاً : رؤية الحياة تامة فى الفن ، ثانياً : رجوع واعٍ للبساطة فى الفلسفة ، وثالثاً : « مثال » من التنقل فى الحياة . خلاصة هذه الفلسفة جميعها هى عبادة الشاعر والفلاح والمتشرد »

علي كمال

يا ســـواق . . .

[إلى التى ترمرع على غدراتها شبابى]

فَرَّقَ الدهرُ بيننا « يا سواق » ومضى بى لغُربتى واشتياق
أين للقلب لحظةٌ من ليالٍ لك وصفُو الحياةِ فى إشراق
كان لى فى رحابك الخُضْر دنيا من نعيم ومن أغانٍ رقاقِ
والمنى عذبةٌ كأشراقةِ الوصـ ـلِ بروح للمعذَّبِ المشتاقِ
والصبا جنَّةٌ على ضفةِ الخلـ ـد ونورٌ يضىءُ فى آفاقِ
ولقد كنتِ للشباب سُلافاً ونديماً جلوَ الحديثِ وساقى
كنتِ لى كوثراً يطهِّر نفسى فنَمَتْ منه عفَّةً أخلاقى

يا « سواق الفيوم » طال غيابى ونوادى يذوب فى الأشواق
كنتِ دنيا من فتنةٍ وخيالٍ وجمالٍ من الطبيعةِ راقِ
كنتِ سلوى لمهجةٍ قد تلظت فى جحيم من جَفْوةٍ وَشِقاق
كنتُ أبكى فتحبسين دموعى بعزاء كم فيه من تِرياق
كم حَلَالِى فى نبعَتَيْكِ اصطباحى وَصَفَا لى من راحَتَيْكِ اغتباقى
كنتِ نِعْمَ الصديقُ إن عبَسَ الدهـ ـرُ وَنِعْمَ الْمُجيرُ مما ألاقى
ذقتُ طعمَ الوفاء من كُوبك الحلـ ـو بريئاً من خدعةٍ أو نفاق
عاش فكرى مع الحياةِ أسيراً كبَّلَتْهُ بِشَرِّهَا الدفَّاق
ورأى عندكِ البشاشةَ والصفـ ـوَ فَغَنَّى فى فَرْحَةٍ وَانْطِلاق
حال بينى و بينك اليوم عيشٌ لم يَنَلْنِى منه سوى الإرهاق
أين موجٌ من « بحرِ يوسفَ » يسرى والأغانى تسيلُ من أبواق ؟
ورياضُ « الفيوم » رَنَّحَهَا الحسـ ـنُ فَلاحَتْ كجنةِ العُشَّاق ؟
وغرامى الذى نما عند شَطَّيـ ـكِ وباركتِهِ بماءٍ مُراق ؟
وحبيبى الذى تلهَّى به العيـ ـشُ وما فيه من كؤوس دِهاق ؟
خَدَعَتْ روحَهُ الزحارفُ فى الأر ضِ فأعْشَى من سحرها البرَّاق
كم بعثتُ الرجاء شعراً فعادت همسانى بالعَجْزِ والإخْفاق !
نسىَ الحُبَّ والسَّواق وصبَّا لم يزل سائراً على العهد باق

« يا سواق » ذكراكِ تغشى كيانى فاحفظينى فى روحكِ الخفَّاق
وخذينى من قبضةِ الفكر يوماً إنَّ عودى بناره فى احتراق
صنتُ فى مهجتى هواكِ فصُونى عهدَ طفلٍ رَبَّيْتِهِ « يا سواق » !

« سلاح خدمة الجيش الملكى »

أحمد اسماعيل المليجى